

كتاب الشهر

قراءة تاريخية تحليلية في خصوصيتنا السياسية والاجتماعية

هيام جورج ملاط: لبنان منارة الشرق وفجر الحرية

في "لبنان نشأة الحرية والديموقراطية في الشرق الادنى"، يستعين المحامي وعالم الاجتماع اللبناني هيام جورج ملاط بادوات السوسيولوجيا وعلم التاريخ، لاستعراض مصادر نشأة المجتمع اللبناني وخصوصيته وتميزه في الشرق، مقدما نموذجاً لم يسبق له مثيل

"قد يظهر تاريخ لبنان محدود الشان قياسا الى احداث طبعت القرون الخمسة الاخيرة. غير ان تاريخ الرجال والنساء فيه، على امتداد تلك القرون الخمسة، يشهد على مواقف واكتسابات سياسية وتربوية وثقافية واجتماعية واقتصادية فريدة، تتيح بتكدها وتألفها فترتد، ان يخرج المفكر السياسي والباحث والمحلل اليوم باستخلاص صورة واقعية لمجتمع متعدد الطوائف تطور في الجبل اللبناني وشع أثره في المدى المجاور، فضيلته الاولى تجنب المحاق، والشهادة على بزوغ فجر الحرية والديموقراطية في الشرق الادنى".

بهذا المقتطف من مقدمة كتابه الجديد "لبنان الحياة"، يمكن اختصار الرسالة الاساسية التي يود المحامي وعالم الاجتماع اللبناني هيام جورج ملاط توجيهها الى القارئ. العمل الجديد ينضم الى سلسلة من المؤلفات في القانون والادب والتاريخ وعلم الاجتماع، اضافها ملاط الى المكتبة اللبنانية والعربية. نبرة متفائلة لكن واقعية وعقلانية في النظر الى هذا البلد الصغير الذي يشكل نموذجاً حضارياً وانسانياً في الشرق، رغم موقعه الجغرافي الحساس الذي جعله موضع تجاذب تاريخي وسياسي، ورغم المشكلات والتحديات والغليانات التي اختبرها.

منذ البدء، يبرر المؤلف عنوان الكتاب المتفائل، قائلاً انه استوحاه من "الاختبار السياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي للبنان في محيط شرق البحر المتوسط، وهي خبرة ذات دلالة رغم ازمتات سياسية وزاعات عرفها خلال فترات متقطعة منذ عام 1975. وانها شهادة ساطعة في هذا الشرق الادنى المضطرب، لاسيما اليوم، بانها انظمة سياسية لا تنشأ في اعقابها انظمة جديدة توحى بالطمأنينة والعصامية. فاستناداً الى مقارنة سوسيولوجية سياسية لا ترتبط فقط، او مباشرة، بالحدث وتواريخه، سنحلل مختلف العناصر التي تكون المجتمع، بهدف التعرف الى

تزامنها، وهو الذي ادى عبر العصور، الى انبلاج فجر مجتمع اصيل لا شبيه له في هذه البقعة من الارض (...). هذا الكتاب يتطلع الى احياء تشبب اللبناني بكيانه وصلابته، الى اي طائفة انتمى، لانه عرف كيف يتكيف في وجه البحر المتوسط مع بيئة جغرافية صخرية وقاحلة يستخرج منها قوة وامنا، ويخلق روح المقاومة لجبه التهديدات الداخلية والخارجية، ويتحمل هذه التهديدات مع ما تحمله من كراهية وفساد وتعسف وجشع، وهي امور قائمة في الشرق، في الامس كما اليوم، في مجتمع يتطلع فيه الرجال والنساء الى امكان الاستمرار في الوجود قبل البقاء على قيد الحياة".

هذه المقدمة الطويلة ضرورية لفهم مقارنة الكتاب، ومحتواه ورسالته والمنهجية التي عمل بها المؤلف. فالكتاب يتجاوز التاريخ الحدئي التقليدي ليحلل بادوات السوسيولوجيا وعلم التاريخ مصادر نشأة المجتمع اللبناني وخصوصيته، معتبرا اياه نموذجاً مرجعياً لتطور سياسي لا يستهدي بأي من النماذج القائمة في البحر المتوسط. هو ليس مقارنة تاريخية، بل تحليل سوسيولوجي سياسي يستند الى عرض تألفي منطقي لتلاقي مكونات مجتمعية شديدة الصلابة، راسخة في شخصية المواطن الاساسية التي يبدو ان "اضطرابات التاريخ ومساوئ السياسات كانت، وقد تبقى، عاجزة عن تحجيمها او القضاء عليها".

انطلاقاً من هذه المقدمة الوافية، قسم المؤلف عمله الى خمسة فصول بابواب عدة، فتناول في الفصل الاول تطور المجتمع اللبناني في اطار البحر المتوسط الذي "طالما مثل الحرية والامل لسكان هذه البلاد التي تعرضت لمختلف اشكال الفتوحات"، فيما قارب الفصل الثاني احداثاً حددت تاريخ لبنان بدءاً من الفتح العثماني للشرق الادنى وتأسيس امارة جبل لبنان عام 1516، وصولاً الى الانسحاب العثماني من الشرق الادنى. وتوقف الفصل الثالث عند جبل



غلاف الكتاب.

هيام جورج ملاط
لبنان
نشأة الحرية
والديموقراطية
في الشرق الأدنى
جذور لبنان الكبير
لوفيل

الطائفية في لبنان تكريسا لجهد مجتمعات في حفظ تاريخها وتراثها وروحية التعاون في ما بينها والتعايش مع مجتمعات اخرى بروحية هذا الهدف.

الى جانب هذه البنية السياسية التي تركزت في النصوص القانونية والدستورية، شكلت التربية والتعليم احد المظاهر المعبرة عن المستويين السياسي والاجتماعي في لبنان. اذ انطلقت في جبل لبنان كما في بيروت وطرابلس مؤسسات تعليم ابتدائي دينية الطابع، وتميزت بسماوات الحدائة والتنوع والشمولية بحسب المؤلف. ويشكل الكتاب المدرسي الذي اصدرته المطبعة الكاثوليكية عام 1882 تحت عنوان "مجاني الادب في حدائق العرب" للاب لويس شيخو اليسوعي نموذجاً على صلابة التعليم والجهد الفكري.

ضم الكتاب افضل ما في خزانة الادب العربي، شعراً ونثراً، على اختلاف فنونه وموضوعاته، من الوجدانيات والوصفيات، الى المواعظ والحكم والزهد، الى الجغرافيا والتاريخ والسير، الى العلم بالجماد والنبات والحيوان، جاثلاً في مختلف العصور من الجاهلية الى طور الانحطاط. لقد اضحى هذا الكتاب مرادفاً لكتاب التعليم العربي. يضيف المؤلف انه في عام 1584، افتتح البابا غريغوريوس الثالث عشر المدرسة المارونية في روما، مما شكل منعطفاً حاسماً للتطور الاساسي في مجتمع جبل لبنان. وارسل البطريرك الماروني سنة 1515 ثلاثة كهنة الى روما لدراسة اللاتينية وعلوم العصر، ما "مثل دليل انفتاح للموارنة على

العصرنة والاتصال بعالم الانتشار والتمكن من مفاهيم لم تكن متوفرة عندئذ في الشرق الادنى". وبدأت العائلات المسيحية ترسل اولادها الصغار للدراسة في روما وتحصيل العلوم المختلفة. وبتدأ من القرن التاسع عشر، دخلت المجتمع اللبناني مناهج جديدة، وانطلقت كلية الطب في الجامعة الاميركية في بيروت، واعتمدت سنة 1867 المنهج الطبي الجامعي في جامعة هارفرد، ثم تبنّت جامعة القديس يوسف للاباء اليسوعيين المناهج الفرنسية في التعليم العالي، ما تسنى للبنانيين "منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر اكتساب الادوات وطرائق المعرفة الحديثة من دون ان يسافروا"، الى جانب احتلال مسائل التربية والتعليم والانفتاح والتنوع والجهوزية الفكرية موقعاً اساسياً في الشخصية اللبنانية.

اضف الى ذلك حركة النشر والطباعة والتاليف التي نشطت منذ عام 1734 مع ظهور صحف وكتب ومطبوعات بمختلف اللغات وفي مختلف المجالات.

في خضم هذه الحركة التعليمية والفكرية والادبية، ثبت تاريخياً ان اول عرض مسرحي في الشرق الادنى شهدته بيروت سنة 1847 مع مسرحية مولير "البخيل" التي اقتبسها الى العربية مارون النقاش (1817 - 1855) وقدمها في بيته في شارع الجميزة. هذه المسرحية كانت نابعة من "ارادة التطوير الثقافي، اذ بنى مارون النقاش اول صالة للتمثيل، ولعب فيها مسرحيات اخرى منذ 1851، فزود بيروت بامتياز جعلها اول مدينة في الشرق تمتلك مسرحاً، فدار الاوبرا في القاهرة لم تبث الا بعد 18 سنة من ذلك التاريخ".

سريعاً، سيمهد هذا التطور الاجتماعي والتربوي في بيروت لتأسيس جمعيات اولها "جمعية التربية" عام 1836، التي هدفت الى "تنقيف الفكر والاستفادة منه"، ثم "الجمعية السورية للعلوم والاداب" (1852 - 1847) التي جمعت اعلاماً محليين واجانب اطلقوا نقاشاً في مجالات عدة من بينها "رائد تعليم المرأة" الاديبي والمربي والمعلم بطرس البستاني (1819 - 1883).

كل هذه العوامل افضت الى احتلال لبنان موقعا استثنائياً على الخارطة رغم صغر حجمه، وموقعه الجغرافي الذي جعله يتأثر محيطه وبما يجري فيه من نزاعات وحروب وتمزقات اولها اليوم "تنفيك العراق، نشوء كيانات سنية، وشيعية وكردية، وحرب وعنف في سوريا، وانتشار الارهاب، والصراع بين الاسلام السني والاسلام الشيعي، وتداعياته بين ايران ودول الخليج، واعادة بروز دور الجيش على الساحة السياسية في مصر، وظهور الدور المتجدد لتركيا وايران على شواطئ المتوسط" بحسب المؤلف.

يرى ملاط انه رغم الحروب والازمات السياسية التي عاشها لبنان، فإن المكونات التي ادت الى نشأة مجتمع تاريخي لم يبن وفق اي نسق سابق في الشرق، زودته "في تطوره الاجتماعي والسياسي بالقدرة على ان يظل ملتزماً باجابات ثلاث عن ثلاث ظواهر شديدة الحساسية في المجتمع المجاور: ممارسة السياسة في مجتمع متعدد الاقليات، ما يؤدي الى عدم ملائمة لمفهوم الاغلبية ورفض الاستبداد واللاتسامح، وحوار العيش الاسلامي المسيحي". اذ لا وجود للبنان من دون هذه الركائز الثلاث رغم الاختبارات القاسية التي عاشها البلد على رأسها الحرب عام 1975.

ويخلص ملاط هنا الى ان لبنان هو "ضحية منطقة معذبة في اراض موعودة بكثرة منذ تاريخ سحيق، وفي اجيال للشرق الادنى، ذبحتها سياسات افتقدت الاخلاص للصالح العام، ملفوفة بالاستبداد وفساد اخلاقي ومادي. لذا، فان دوره ان يكون مثلاً لمجتمع سياسي تسوده ديموقراطية صعبة ومجتمع اقتصادي ليبرالي مدعوم بالتزام فردي شجاع للعيش. فمواجهة التحديات السياسية تدل على الشخصية الاساسية لمجتمع عرف كيف يمسك بالامكانات المطروحة ليستمر رفيع القدر في التاريخ على اعلى دروبه الخطرة".